تاريخ الفن

للدكتور احمد موسى

— ١ —

لم يقتصر مجهود الجامعات والعلماء على تسجيل الحضارات عن طريق كتب التاريخ القديمة والحديثة بل وجدوا أنه لا بد لهم من الاستعانة بالإنتاج الفني في مختلف العصور ، إذ أنه المرآة الصادقة التي بها يمكن الوصول إلى نتائج حاسمة في تاريخ الحضارات والمدنيات

ولذلك كانت مهمة تاريخ الفن هي الاستعراض العلمي لتطوره على أساس التاريخ العام مع مراعاة أصول علوم أخرى أهمها علم الآثار Archaeologie وعلم قراءة المخطوطات والنقوش القديمة Balaeographie وفن الدراهم والمسكوكات Numismatik وعلم وصف التماثيل والأيقونات القديمة Phonographie وفن علامات وإشارات الأنساب القديمة Horaldik وغير ذلك مما لا يستند فقط إلى السرد أو التاريخ الذي قد يكون متحيزاً أحياناً إلى مبادئ معينة أو غايات مقصودة حيث تدعو الحاجة إلى صبغه بصبغة قومية أو سياسية بذاتها ، مما لا يفطن إليه إلا العارف الباحث في أصوله

وإذا كان المسلك العلمي في التاريخ العام هو تقسيمه إلى قديم ومتوسط وحديث ؛ فإن تأريخ الفن يرجع إلى نفس القاعدة رجوعاً كاملاً ، لما لها من فائدة التبسيط وإيجاد الرابطة بين التاريخ العام وتاريخ الفن

ويتناول تاريخ الفن القديم استعراض فن البناء (العمارة) وفن التمثيل (النحت) وفن الصناعات الدقيقة (الحلى وأدوات الزينة الرفيعة) استعراضاً يرجع في أساسه إلى التقسيم الجغرافي فيأخذ فن كل قطر على حدة ويتبع في ذلك أقدمية الحضارة . وعليه فأول الفنون جميعاً الفن المصري ويليه البابلي الآشوري والفارسي والهندي والصيني. هذا في الشرق الأدنى والأقصى . ثم يأتي بعد ذلك الفن الإغريقي الهائل[1] ثم الفن الأتروسكي[2] والفن الروماني والفن الإسكندري

أما تاريخ الفن المتوسط فيتناول الفن المسيحي القديم والفن البيزنطي الذي كان له أثر ملحوظ في كل البلاد الأوربية المتمدينة التي وجد فيها أثر للفن الروماني والقوطي

هذا إلى جانب ناحية هامة في تاريخ الفن المتوسط وهي ناحية الفن الإسلامي الذي ظهر في أقطار متباينة وكان ولا يزال محافظاً على طابعه المميز

أما تاريخ الفن الحديث فهو كثير التشعب صعب التقسيم لتقارب الشعوب واتصالها الذي ترتب عليه انتقال الثقافة من أمة إلى أخرى وتأثير مدنية في غيرها، ولاسيما في الفن الألماني في عهد النهضة من أوله إلى آخره (القرن الرابع عشر (إيطاليا) والخامس عشر والسادس عشر) وما كان للفن في تلك المرحلة من طُرز مختلفة الوضع متشابهة الروح كما أن انقسام الفن إلى باروك Barock وإلى روكوك Rokok كان له أثره الهام في الفن الحديث .

والإنتاج الفني بعدئذ هو ما يمكن تسميته بالفن المعاصر

---

(١) راجع في ذلك كله مجلدات الرسالة للسنة الرابعة والخامسة فقد بسطنا هنالك الكلام ووفينا البحث

(٢) الفن الأتروسكي هو فن الشعب الذي استوطن شمال ووسط إيطاليا قديما ، وقد ظهر هذا الفن حوالي عام ١٠٠٠ ق . م وازدهر بين القرنين الثامن والرابع ق . م

أو إن شئت فقل هو الفن الذى أدى إلى ما نلمسه الآن من الفنون المعاصرة ، سواء ما كان منها مدرسياً أو سائراً على الأسس المدرسية ، وسواء ما كان منها متجهاً إلى ما يسمونه الفن الرمزى والفن الوصفى والطابعى والاقتباسى .

وكان التقسيم المتبع فى الفن الفرنسى والفن الإنجليزى هو أن ينظر إليهما تبعاً للمراحل التى مرا بها ، ومميزات كل مرحلة منذ القرن السادس عشر ؛ ولاسيما أن هذه المراحل كانت تسمى بأسماء الملوك والحاكمين ، وهذه ظاهرة اختص بها هذان الفنان دون غيرهما .

وإلى جانب هذه الفنون الحديثة فنون شرقية حديثة أيضاً سارت فى طريقها بعض الشئ وتطورت تطوراً مخالفاً لسابق فنونها ، ولكنها مع هذا ظلت محافظة على طابعها الشرقى المميز . هذه الفنون هى الفن الهندى والفن اليابانى والفن الصينى ، التى لم يكن المؤرخ الفنى يُعنى بدراستها دراسة علمية إلا فى العصر الحالى

أما مهمة تأريخ الفن نحو هذه الفنون جميعاً فهى تكاد تكون نفس الدراسة المرتكزة على قواعد مشابهة لتلك التى اتبعت فى تأريخ الأدب فى العصر الأخير . وبذلك أصبح التأريخ الفنى والنقد الفنى والتسجيل الفنى علوماً قائمة بذاتها لها أصولها وقواعدها .

ولتاريخ الفن قصته ككل علم آخر . فقد شملت كتب القدماء ما يهم المؤرخ الفنى إلى حد كبير ، فكتاب التاريخ الطبيعى لبلينيوس[1] Plinius وكتاب الرحلة لبوزانياس[2] Pausanias اشتملا على بيانات وإيضاحات كثيرة وأوصاف مسهبة عن الفن فى العصر القديم ، ولكنها كانت أقرب إلى مجرد الرد مع اشتمالها على أسماء الفنانين ووصف ماتم عمله على أيديهم دون نقد فنى أو دراسة ذات غاية ، كما خلت من بيان شاف لتطور الفن فى أية مدرسة أو مرحلة زمنية معينة .

ولوحظ أن هذا المسلك فى التأليف كان الغالب أيضاً فى العصر المتوسط ، فكل ما كتب فى شأن الفن وتأريخه لم يخرج عن وصف عام للمبانى الرائعة وما استنفده تشييدها من مجهود .

أما التأريخ الفنى بمعناه الحديث فلم يكن ميسوراً لأولئك ولا لهؤلاء بحال . ومنذ ذلك الحين بدأت الجهود الفردية تظهر فى الأفق رويداً رويداً ، ولا سيما بعد ما التفت المسافرون الراغبون فى المشاهدة والمعرفة ، وكذلك غيرهم ممن اشتغل بدرس اللغات القديمة ، إلى وجوب معرفة آثار الأقدمين والغاية من إقامتها وما تدل عليه وعلاقتها بالحضارة ، واتخاذها وسائل قيمة للتدليل على اتجاه معين فى الدرس والفحص

هنا بدأ تاريخ الفن فى الظهور والتطور العلمى . وكان أول أثر لذلك هو إيضاح ما كتبه الأقدمون وما تدل عليه كتابتهم عن الآثار التى لم يكن الكثير منها موجوداً حيث كان القدم والإهمال وعدم الرعاية والتغيرات الجوية والمدنية قد طغى كل هذا على معظمها فكانت أثراً بعد عين

فاشتغل فريق من علماء تاريخ الفن بتفسير ما كتبه فيتروفيوس[1] Vitruvius على حين اشتغل فريق آخر بنبش القديم وتفسير الكتابات والنقوش التى وجدت على كثير من الآثار

هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فقد قام فريق آخر بمعاينة آثار روما وبعمل رسومات هندسية ومساحية دقيقة عنها

ومهما يكن نوع هذه المجهودات والكيفية التى سار عليها أصحابها ، فإنه لا يمكننا أن نرجع المحاولات الصائبة فى مضمار تأريخ الفن إلى أبعد من القرن السادس عشر . ولعل أول من نعتبره فى مرتبة مؤرخى الفن هو ڤاسارى Vasari بكتابه القيم الشامل لتراجم هامة لرجال الفن فى إيطاليا Vite dé pin eccellente pittori, architetti e scultori italiana

وجاء بعده كارل فان مندر بكتابه المدهش « المشاهدات » Schilderboek المطبوع فى هارلم سنة ١٦٠٤ وفى أمستردام سنة ١٦١٨ ، وكان أقل أثر يذكر له الدعاية للفن ولتاريخه ولتعريف الراغبين بعض الشئ عنه

(١) بلينيوس الكبير التفرقة بينه وبين ابن أخته : كاتب رومانى ولد سنة ١٣ بعد المسيح فى كرمون ومات سنة ٧٩ عند ثورة بركان فيزوف وكل ما ألفه فى التاريخ والبلاغة والأجرومية نقد . ولم يبق له سوى كتاب على هيئة دائرة معارف فى ٣٧ جزءا Historia Naturalis ويشتمل على معلومات مستقاة من كثير من كتب الاغريق واللاتين فى التاريخ الطبيعى وفى غيره من المعلومات التى تهم المشتغلين بالعلم .

وهو إلى جانب ما فى كتبه من الفوائد الهائلة يعد المرجع القديم فى تاريخ الفن — راجع Kalkwann Die Quellen der Vuostgeschichte des Plinius Berlin 1898

(٢) پوذانياس الكاتب الاغريقى من مقنيسا بآسيا الصغرى سافر أيام هدريان والأنطونيين إلى بلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وليبيا وإيطاليا وألف كتابه الشامل لعشرة أجزاء بين سنة ١٦٠ — ١٨٠ بعد المسيح لجزء من هذه الرحلة Periegesis Hellados

وأهم ما كتب فى هذه الكتب وصف القطع الفنية الرائعة وهو إلى جانب بلينيوس أهم من كتب عن الفن — راجع Siebelis und Reichardt, Puasanias 9 Vols., Stuttgart 1827-28

(١) فيتروفيوس الكاتب اللاتينى والبناء الحربى فى حكم قيصر أوغسطس ، ألف عشرة كتب مهداة إلى أغسطس أوضح فيها كل شئ عن العمارة . راجع : Ioit nrnAV vus, Rode, 2 Vols., Berlin 1800

وجاء هولاندى آخر هو آرنولد هوبراكن بكتابه « الواصف الكبير » Groote Schuburgh فى ثلاثة أجزاء ، طبعت فى أمستردام أيضاً سنة ١٧٢٨ ، والتى كانت أساس دراسة الفن فى هولاندا كلها

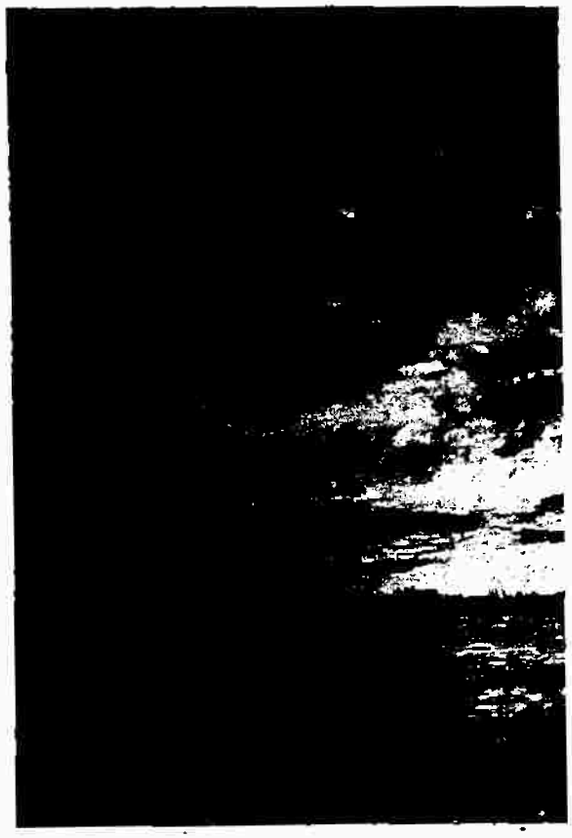

معركة النور والظلام

أما فى ألمانيا فقد ألف المؤرخ يواخيم فون ساندرت كتابه الباهر « أكاديمية العمارة والنحت والتصوير » المطبوع فى نومبرج سنة ١٦٧٥ — ١٦٧٩ للمرة الأولى ، والذى كتب عنه كل المشتغلين بالفن من معاصريه كتابة ذات صفة علمية

على أنه من الضرورى أن نقول بأن الاشتغال بالتأريخ الفنى كان خلال القرن السابع عشر قاصراً فى الغالب على دراسة الفن القديم . هذا إلى جانب وجوب التنويه بأن بعض المشتغلين بتأريخ الفن وجهوا اهتمامهم إلى ناحية الفنون الصغرى الدقيقة كأشغال المعادن وما إليها من أدوات التحلية ؛ وقد ظهر فى هذا المجال كتاب قيم لبرناردى مونفاكو ، وهو مكون من خمسة عشر جزءاً طبع فى باريس سنة ١٧١٩ — ١٧٢٤ L'antiquité expliquée et representée en figures طبعاً رائعاً وشمل الكثير من الصور الجيدة. وهو من دون نزاع أول مؤلف أوضح فى جلاء كل المخلفات فى العصر القديم ، والتى كانت ظاهرة للعيان فى تلك الأيام

وكان الفضل فى انتشار هذا المؤلف ورواجه راجعاً إلى كتاب آخر ألفه النبيل كالوس[1] Caylus ونبه أشاد بذكر هذا المؤلف فى كتابه Recueil d'antiquités (سبعة أجزاء طبع باريس ١٧٥٢ — ١٧٦٧)

وظل الحال فى ألمانيا على ما هو عليه منذ ساندرت إلى القرن الثامن عشر عند ما أخرج يوهان فردرش كرست وزميله جيزر سوغفهما العلمى عن الفن القديم . هنا انضم إليهما أهل العلم والفضل من مدينة درسدن الذين كانوا عاكفين على كتب الفرنسيين لأنها كانت الكتب التى يمكن الرجوع إليها فى ذلك الحين لعدم وجود غيرها (له بقية)

أحمد موسى

الاتساق ...

(١) كالوس أثرى فرنسى مولود فى ٣١ أكتوبر سنة ١٦٩٢ سافر إلى القسطنطينية سنة ١٧١٦ ومنها إلى بلاد الاغريق وإيطاليا والمناطق البحرية من لاديتا وعاد إلى باريس ١٧١٧ حيث بدأ تنظيم مجموعة تحفه وتفرغ لدراسة التاريخ القديم وعلم الآثار القديمة وأوقف نفسه على خدمة الفن والمشتغلين به من الناشئين

وكان عضو الأكاديمية للتصوير والنحت منذ سنة ١٧٣١ وأكاديمية المكتوبات القديمة منذ سنة ١٧٤٢ ، ولها أوقف جائزتين خاصتين بكل منهما مات فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٦٥ فى باريس